

فن صناعة قماش لحاء الأشجار (الباركلوث) عند سكان مملكة بوغندا.

الأستاذ: سليمان يوسف

Youcef slimani

(جامعة خميس مليانة)

slimaniiyou2@gmail.com

مقدمة:

تُعتبر مملكة بوغندا من أكبر الممالك السياسيّة التي قامت في دولة أوغندا منذ القرن الثاني عشر، وبقيت مستمرة في وجودها حتى القرن العشرين، وهي تحتلّ الجزء المركزي (الأوسط) لأوغندا، وتشغل بذلك أكبر مدينة في البلاد (كامبالا) العاصمة السياسيّة للبلاد اليوم، ويُقدّر عدد سكانها حاليا بنحو 1.5 مليون نسمة، أي بنسبة 17% من مجموع السكان حسب إحصائيات 2017، وسكانها يمثلون أكبر مجموعة عرقية في البلاد، تعود أصولهم إلى قبائل البانتو المرتحلة من خليج بياфра بغرب إفريقيا، ويتكلم الناس بها لغة اللوغندا (Luganda)، وهي منتشرة على نطاق واسع في البلاد، ويعرف سكانها بشعب الباغندا، Baganda، أو الغاندا (Ganda). تميز مجتمع 'الباغندا' عن غيره من المجتمعات الإفريقية الأخرى في كثير من المظاهر الحضارية، خصوصاً فيما تعلّق بنمط اللباس عندهم، وطريقة صنعه، فقبل أن تصل تجارة السواحليين، والعرب، بعد النصف الثاني للقرن التاسع عشر، والتجار الأوربيين في نهاية القرن، أوجد سكان المملكة لأنفسهم نوعاً خاصاً من اللباس، أو القماش يعرف باسم 'الباركلوث' (Barckloth)، وهو قماش يصنع من لحاء الأشجار التي تنمو في المملكة، حيث استغلها السكان، وصنعوا منها قماشاً، يرتدونه، ويسترون به أجسادهم، فكيف كانت تتمّ صناعته؟، وما هي أنواع الأشجار التي ينتزع منها ذلك اللحاء، هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها في بحثنا هذا.

الكلمات المفتاحية: مملكة بوغندا ، لباس سكان بوغندا، القماش في بوغندا، سكان

بوغندا

لباس سكان مملكة بوغندة:

قبل أن يصل التجار العرب، والسواحليين إلى مملكة بوغندة كان لباسهم يقتصر أكثر على ارتداء قُماش لحاء الأشجار المعروف عند سكان مملكة بوغندة باسم 'الباركلوث' (Barckloth)؛ لذلك كان لباس النساء عادٍ جداً، بحيث ترتديه النساء في كل مكان، ولا بديل عنه؛ لأنه لا لباس لهم إلا قُماش لحاء الأشجار، أو بعض الألبسة المصنوعة من جلود الحيوانات، خصوصاً جلود الماعز، والأغنام¹.

أما بخصوص الرجال، فهم يَتَّبِعُونَ أسلوب لباسٍ أكثر عقلانية، حيث كانوا يرتدون ألبسةً عريضةً مصنوعةً أيضاً من قُماش لحاء الأشجار (الباركلوث)، وبألوان مختلفة حسب نوعية حصاد اللحاء²، وعليه يُعتبر لباس الرجال مناسباً، ومعقولاً جداً، فكل من الفتيان، والرجال يُلاحظ دوماً؛ لأن لباسهم جيد، وهم حريصون على إبقاء ملابسهم نظيفة³.

- صُنِعَ قُماش اللِّحاء (Barkclothe):

أصل قُماش اللِّحاء: قماش اللِّحاء، أو الباركلوث (Barckloth)⁴، كما يُسمى في لغة الغاندا، هو قماش مصنوع من اللِّحاء الداخلي لنوع معين من الأشجار، يُعرف بـ 'ميتوبا' (Mutuba) تُصنع منه الملابس الرفيعة عند الباغندة⁵.

لا يُعرف الكثير عن أصل قُماش اللِّحاء في مملكة بوغندة بشكل واضح رغم ما قدّمه العديد من المؤرخين من نظرياتٍ خصوصاً المؤرخون الأجانب الذين زاروا المنطقة على غرار المؤرخ 'روسكو'، و'طومسون'، 'بيرت'، إلى جانب المصادر المحليّة مثل 'كاغوا'، 'كالوزا'، 'لوجيرا'، وقد سلّط هؤلاء الضوء على صعوبة تحديد أصول صناعة قماش اللِّحاء في مملكة بوغندة، وشرق إفريقيا بشكل عام⁶.

واستناداً إلى الأبحاث التاريخية حول الهجرات التي حدثت في إفريقيا جنوب الصحراء، ووسط إفريقيا خلال القرنين الثالث عشر، والرابع عشر يذكر 'بيرت' (Burt) أن الأدلة المتاحة تسمح لنا بالقول أن قُماش اللِّحاء ثبّت وجوده في وسط إفريقيا، ثم انتقل مع مرور الوقت إلى شرق إفريقيا خلال الهجرات التي شهدتها المنطقة الشرقية من القارة، وفي

نفس السياق يقول 'ديفيد ستايرز' (David stairs) في مقالته المعنونة بـ 'الحيوية الثابتة للفردية': بما أنَّ عصر اللغات الأوغندية مستمدّة من اللغة الأمّ 'البانتو'، فإنّ اللغة، والقماش يمكن أن تعودَ إلى موطن 'البانتو' في الشرق، والجنوب من القارة⁷.

ومع استمرار نظرية الهجرة يقول 'تومسون' (Thompson) "من المحتمل أن تكون الباغنده جَلِبَت معهم إلى أوغنده فنَّ صُنْع قماش اللحاء"، ومن ناحية أخرى يُقَدِّم 'روسكو' Roscoe العديد من الفرضيات فيما يتعلّق بأصول قُماش اللحاء فيقول "إنَّ الملك 'كينتو' (Kintu) جلب الشجرة التي يُنْزَع منها اللحاء، وكذا الناس المَهْرَة الذين يصنعون القُماش من مملكة البانيورو"⁸.

ومع ذلك استطاع كُلُّ من 'كاغوا' (Kagwa)، و'لوجيرا' (Logira)، وباحثين آخرين الوصول إلى حقيقة قُماش اللِّحاء من خلال أحفاد عشيرة 'النجونج' (Ngonge)، وهي واحدة من المجموعات الإجتماعية التي هاجرت إلى مملكة بوغنده في الفترة ما بين القرن 13م و16م⁹، وهذا انطلاقاً من السرد التاريخي الذي تمَّ إطلاقه على نطاق واسع بين الباغنده ينصُّ على أنَّ عضو من عشيرة 'نغونج' (Ngonge) وقف على هذا الإكتشاف التاريخي عن طريق الصدفة عندما كان يقطع قطعة من اللِّحاء، والتي كان قد جمعها من الغابة.

وبينما كان هو في رحلة الصيد، تفاجأ من الأمر بدَل أن ينكسر هذا اللِّحاء أصبح أكثر ليونة وطرارة، فعاد بسرعة بعد ذلك إلى الغابة، وقطع لحاءً آخرًا، وكرر التجربة، فوجد الأمر نفسه، أخذ بعدها اللِّحاء، وقَدَّمه إلى الأميرة التي قدَّمته بدورها إلى 'الكاباكا'، وتم تكريم هذا الرجل، وأعطيت له وظيفة عالية في القصر، وتنتهي القصة من خلال القول أن أصبح منذ ذلك الوقت فصاعدًا أعضاء عشيرة 'النجونج' صانعي قماش اللِّحاء الملكي¹⁰.

أشجار قماش اللحاء ميتوبا Mutuba

الأشجار التي يُنْزَع منها اللحاء تُسمَّى عند الباغنده بـ 'ميتوبا' (Mutuba)، وهي تُشبه أشجار البن¹¹، ويمكن لها أن تنمو بطول 40 قدم، وتُشكّل لها مظلة سمكية من الأوراق الخضراء الواسعة تصل ما بين 3 إلى 4 بوصات، لديها جذعًا ناعمًا، ورماديًا يصل

طوله أحيانا 10 أقدام، ومن جهتهم الباغدة كثيرا ما يزرعون هذه الأشجار حول بيوتهم، وهناك أكثر من ثلاثين نوعا من أنواع 'الميتوبا'، ولكنَّ الغالب، والمعروف أكثر عند الباغدة هو 'فيكوس ناتالينيس' (Ficus Nataleniss)¹²، وعليه يُمكن إبراز أهمَّ الأنواع الأخرى، وهي:

- ناميويريكا (Namweruka) - نتوجو (Ntojo) - ساكاكيب (Sakakube)
- مبولومبيزي (Mpolembuzi) - ناندا (Nanda) - ناكويريكا (Nakaweruka)
- لولولا (Lwolula) - كيوتوزا (Kyetesa) - بيتانا (Butana) - نالينيونج
- نالونيونج (Nalunyonge) - ناليم (Nalima)، بالإضافة إلى عدَّة أنواع أخرى كُلُّها تنمو في منطقة 'غومبا' (Gomba)¹³.

وتتمُّ عملية نَزْع اللِّحاء من الشجرة عندما يصل طولها 18 قدم، وقطرها بنحو 6 بوصات، وتتمُّ العملية بإجراء شقِّ دائري قُرْبَ سطح الأرض من جذع الشجرة، وآخر عندما تبدأ فروع الأشجار، ثمَّ يُشقُّ لحاء الشجرة الخارجي بشكلٍ طولي من الدائرة العلوية إلى السفلى، والشقُّ يكون في شكلٍ عميق بما فيه الكفاية للحصول على لحاءٍ كاملٍ مع الحفاظ على سلامة الشجرة¹⁴، وعادة ما يكون اللِّحاء الثاني أفضل من الأول، والثالث أفضل من الثاني؛ لأنَّ الشجرة في كل سنة تعمل على تجديد لحائها، وعموما الشجرة الواحدة تُنتج قرابة 43 لحاء¹⁵.

معالجة اللحاء قبل عملية الضرب:

بعد الانتهاء من عملية حصاد لحاء القماش، والتي سبق وأنَّ تطرقنا إلى كيفية حصاده في الجانب الزراعي، يتمُّ لَفُّ اللِّحاء، ونقله إلى ورشة صُنْع قُماش اللِّحاء، حيث يُعالج باستخدام أساليب مختلفة لتجفيف اللِّحاء المحصود قبل عملية الضرب، وأول عملية يقومون بها هي تبخير اللحاء حتَّى يصبح أكثر ليونة، ولا يُمكن له أن ينقطع¹⁶، وهذا بوضعه داخل أوراق الموز العريضة حتَّى يُحافظ على ليونته، ثم يبدأ عملية ضرب اللحاء.

وفيه من يضع اللحاء مباشرة داخل حمام من الماء الساخن، لتبدأ عملية الضرب بعدها، وهي طريقة مختلفة عن باقي الطرق، وبعد عملية الضرب تأتي مرحلة الحرق الخارجي لغطاء الموز الذي يعطي لونًا خاصًا للحاء، فيعمل على تجفيف اللحاء من الصمغ الموجود في اللحاء¹⁷.

عملية تصنيع قماش اللحاء:

بخصوص عملية تصنيع قماش اللحاء يُعطي المؤرخ 'طومسون' (Thompson) دراسة أثنوغرافية عن ذلك، لكنه لا يُحدد الموقع الرسمي داخل مملكة بوغندة في تصنيعه، وقد لاحظ 'أمين باشا' تقسيم العمل في عملية صناعة اللحاء مشيرًا إلى أن عددًا كبيرًا من الناس كانوا يشتغلون في صناعته¹⁸، حتى أصبحت مع مرور الوقت صناعته تقتصر على الرجال فقط¹⁹.

ومن ناحية أخرى لاحظ السير (Bland-suten) الإهتمام الكبير الذي دَفَع إلى تصميم، وإنهاء عملية تصنيع اللحاء في مملكة بوغندة حيث يقول: "إنَّ شرائط قماش اللحاء مُخاطة مع أنسجة إلى أي حجم مرغوب فيه، وغالبًا ما يتنوع قماش اللحاء من تصاميم مختلفة، وبأشكال غريبة عن طريق الصبغ الأسود"²⁰.

وكثيرا ما كان يُصنع قماش اللحاء داخل الأسرة الواحدة بمساعدة الأولاد، كما أظهرت العديد من الدراسات الأخرى أن صناعة قماش اللحاء نتجت عن بناء الأكواخ التي تحتاج إلى أعمدة خشبية كبيرة، وبالتالي لحاء تلك الأخشاب يُستغل في صناعة القماش²¹.

تُنشأ ورشة عمل لحاء القماش في بستان الموز بالقرب من مكان الإقامة، حيث يُحضّر صندوقًا مصنوعًا من الخشب الصلب بقياس 12 قدم طولًا، ومن 6 إلى 8 بوصات عرضًا، وحوالي 12 بوصة في الارتفاع؛ ليوضع اللحاء بداخله مع إضافة بعض المواد التي تجعل منه أكثر ليونة²².

وتتطلب عملية تحضير قماش اللحاء الإعتماد على ضرب اللحاء لمدة تتراوح ما بين 4 و5 ساعات، وبذلك يتمدد اللحاء أكثر إلى أربعة أضعاف حجمه الطبيعي، ثم يتم طي اللحاء بعناية مع ضرب أطرافه للحفاظ على سلامته، وليونته، ويترك بعدها في شكل كومات أمام الشمس حتى يُسمح للسائل الزائد بالتبخّر²³.

وبشكل عام تُعتبر عملية الضرب هي الأساس، وحسب ما يُراد للقماش أن يكون، فإن كانوا يرغبون في قماشٍ غليظ يوضع كأسيّة مثلا: لا يُضرب اللحاء كثيرا، والعكس صحيح، وتتطلب هذه العملية الكثير من العمال الماهرة، حيث يتجنبون الضرب العشوائي الذي يمكن أن يقطع اللحاء إلى نصفين²⁴.

وبعد الانتهاء من عملية الضرب تأتي عملية التشطيب، حيث يُنشر القماش في منطقة مفتوحة، ويؤمن على أطرافه بإحكام مع بعض الحجارة، والغرض من ذلك هو أن يتعرض القماش إلى أشعة الشمس حتى يتحسن لونه، فيميل بعد ذلك إلى البني، وهو اللون المفضل عند الرجال، وهذه العملية يمكن أن تستغرق عدّة ساعات، أو أيام اعتمادا على الطقس، وفي نهاية المطاف يُغسل القماش مرّة أخرى، وتجفيفه ليصبح بعدها جاهزا للاستعمال، أو الخياطة²⁵، والرجال كانوا خبراء كذلك في تغطية، وملء الأماكن الفارغة من اللحاء حيث تظهر على شكل بقع سيئة المنظر، فيعملون على إحضار قطع صغيرة مماثلة، وإخاطتها بلفيف من نبات الموز، حتى لا تظهر تلك البقع²⁶.

وبصفة عامة قماش اللحاء (Barckloth) لم يكن يُستعمل للباس فقط؛ بل حتى كملابس للسرير، وللف جدران البيت²⁷، ومن عادات الباغندا أن لا يُسمح للمرأة التي تكون في عاداتها الشهرية المشاركة في عملية صنع اللحاء؛ وأيضا لإعتقادهم أنه يمكن للمرأة الحائض أن تلوث أشجار قماش اللحاء، ويمكن أن تتسبب في جفافها²⁸.

خاتمة

إنّ اعتماد سكان مملكة بوغندا منذ القدم على أنفسهم في توفير حاجياتهم من الألبسة، والأغطية، والأفرشة دليل على تفوق سكان المملكة في كثير من الجوانب، ما جعلهم يتميزوا بين جيرانهم في صناعة قماش لحاء الأشجار الذي يعرف بالباركلوث Barckloth، ولهذا الأخير تقنيات خاصّة ومراحل متعدّدة قد تستغرق ستة أشهر لإعداده، وتقنوا في خياطته، وطرزه وتلوينه، وهم بذلك الفعل حافظوا على كرامة أجسادهم حتى لا تتكشف من جهة، وأوجدوا لأنفسهم نشاطا يُعتبر مصدر رزق لفئة كبيرة من المجتمع.

¹ Marjorie, K. McIntosh : **The Context, Causes, and Cultural Valuation of Yoruba and Buganda Women's Participation in the Public Economy**, (Program of African Studies), Northwestern University, PAS Working Papers Number 22, USA, 2008 p 13.

² C. W. Hatterrselly, **The Baganda At Home, the religious tract society**, London, 1908, p 93.

³ Idem.

⁴ لقد أجريت عدّة بحوث عن قماش اللّحاء من قِبَل الأفراد، والباحثين، والمنظمات، والشركات، ومن بينها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) التي اعترفت مؤخرًا أنّ قماش اللّحاء من بين التراث العالمي في العالم اليوم، بالإضافة إلى ذلك أقيم معرض في يناير 2011م تحت رعاية اللجنة الألمانية لليونسكو في 'هيمتستيل' فرانكفورت - أكبر معرض للمنسوجات في العالم، وتمّ الإشارة إلى أنّ قماش اللّحاء هو الأكثر قِدَمًا في تاريخ البشرية، وكانت قبل ذلك منظمة الأمم المتحدة للتربية، والعلوم، والثقافة (اليونسكو) في عام 2005م قد اعترفت بأنّ الباركلوث جزءًا من التراث العالمي، وذو أهمية طقوسية بين الباغنده، أنظر:

- Esther Nakirulu: **Barckloth, Swedish consumer attitudes towards sustainable fabrics** , Master's Thesis, University of BORÅS, Sweden, 2013, pp10,11.

⁵ Venny M. Nakizibwe : **Barcloth of the Baganda people of southern uganda, A record of continuity and change from the late eighteenth century of the early twenty first century**, Middelesew University press, 2005, p42 .

⁶ Idem.

⁷ Esther Nakirulu : op. cit, p 11.

⁸ Venny M. Nakizibwe : op. cit, p43.

⁹ Ibid : p 63

¹⁰ Idem.

¹¹ Patricia L. Howard and Gorettie Nabanoga : **Are There Customary Rights to Plants, An Inquiry Among the Baganda (Uganda), with Special Attention to Gender**, International Food Policy Research Institute, 2033 K Street, N.W. Washington, October 2005, p22.

¹² Venny M. Nakizibwe : op. cit, p67.

¹³ John Roscoe : **The Baganda : An Account of the Their Native Customs and Beliefs**, Macmillan and Co, Limited, London, 1911, p404.

¹⁴ A. D. F. T : **Bark-Cloth Making in Buganda**, (the Uganda Journal), Vol 1, No : 1, January 1934, The Uganda Literary and Scientific society, Uganda 1934, pp 18, 19.

¹⁵ Esther Nakirulu , op. cit, p16 .

¹⁶ A. D. F. T : op. cit, p 19

¹⁷ Venny M. Nakizibwe : op. cit, p75.

¹⁸ A. D. F. T : op. cit, 19.

¹⁹ Lanning . E. C : **Two Bone Barkcloth hammers from Mubende Uganda**, (Man), No 57, london, 1957, p 39.

²⁰ Venny M. Nakizibwe : op. cit, p45.

²¹ Ibid: p46.

²² A. D. F. T : op. cit, p 20.

²³ Esther Nakirulu : Op. cit, p14.

²⁴ Venny M. Nakizibwe : op. cit, p80.

²⁵ Schweinfurth G : **Emin Pasha in Central Africa**, London, 1888, p 119.

²⁶ John Roscoe : op. cit, p 406.

²⁷ A. D. F. T : op. cit, pp 20, 21.

²⁸ Venny M. Nakizibwe : op. cit, p72.